

الفصل الحادي عشر

الخدع والخيانة

أصبح الوضع صعباً بالنسبة للمسلمين في المدينة، فقد أدت هزيمة أحد إلى عواقب متعددة، لم يكن أقلها فقد هيبتهم في نظر القبائل المجاورة التي أصبحت تنظر إليهم نظرة مختلفة وتعتقد أنهم ضعاف المنعة، وأن وضعهم أصبح ضعيفاً، وتم حشد حملات عديدة ضدهم في محاولة لاستغلال ذلك الوضع، أما محمد ﷺ، الذي كان تأتية في بعض الأحيان تحذيرات بشأن هجمات مزمعة على المدينة، فكان يرسل رجاله - بجماعات مكونة من 100 إلى 150 رجلاً - إلى مختلف القبائل لتهديتهم أو منع عدوانهم، وقد حفلت السنة الرابعة بعد الهجرة (262م) بمثل تلك الصراعات المحلية الطفيفة، والتي عملت مع ذلك على تعديل (وفي بعض الأحيان تثبيت) المخالفات أو ميزان القوى في المنطقة، وكان هذا يشبه نوعاً من لعبة الشطرنج بين قريش ومسلمي المدينة، وكان الطرفان يدركان أن مواجهة واسعة النطاق لا بد قادمة، ولم يخف أهل مكة رغبتهم في استئصال الجماعة الإسلامية من الجزيرة، وظلوا - لهذا الغرض - يقيمون التحالفات مع القبائل المجاورة، وكان وضعهم يزداد صعوبة لأن الطرقات التجارية المباشرة في الشمال، المؤدية إلى بلاد الشام والعراق عن طريق الساحل، لاتزال موضع رقابة المدينة وسيطرتها، لذا فقد شعرت قريش بأنه يتعين عليهم اتخاذ إجراءات سريعة وجذرية بغية استغلال هشاشة المسلمين بعد الهزيمة وتحرير الطرقات التي كانت قوافلهم تحتاج إليها في الذهاب إلى الشمال، على السواء.

بنو النضير

أخذ الكثيرون من المسلمين أسرى في تلك السنوات حيث كانوا يقعون في الكمائن أو يتغلب عليهم أعداؤهم بكثرة عددهم، وكانوا كثيراً ما يعذبون أو يقتلون قتلاً مريعاً، وقد روت الأحاديث شجاعتهم وصبرهم وعزتهم في مواجهة الموت، وفي معظم الأحيان كانوا يطلبون -مثل حبيب- السماح لهم بأن يصلوا ركعتين قبل قتلهم، وكانوا يطيلون تلك الركعات في الدعاء إلى الله الأحد، الذي ضحوا بممتلكاتهم وحياتهم في سبيله، في أحد الأيام، جاء رجل من قبيلة بني أمير واسمه براء إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يرسل معه مجموعة من أربعين من المسلمين ليعلموا القبيلة كلها مبادئ الإسلام. وقد أعرب محمد ﷺ، الذي كانت تصله أنباء التحالفات المحلية، عن خوفه من احتمال تعرضهم لهجمات القبائل الأخرى المعادية للإسلام أو التي أبرمت تحالفاً مع قريش. فتعهد له البراء بحمايتهم من قبل بني أمير الذين كانوا يتمتعون بهيبة كبيرة والذين يعتمدون أيضاً على تحالفات عديدة، غير أنه لم يأخذ بالحسبان النزاع الداخلي ضمن عشيرة بني أمير، وقد عمل ابن أخ براء ذاته على قتل دليل مجموعة المسلمين (الذي كان يحمل رسالة من النبي ﷺ)، ثم عندما رأى أن عشيرته ستحافظ على عهد الحماية الذي قدمه عمه، كلّف عشيرتين أخريين بقتل مجموعة المسلمين كلها قرب قبر المناخ، عدا رجلين استطاعا الفرار حيث إنهما كانا قد ذهبا لإحضار الماء⁽¹⁾. وقد فضّل أحدهما أن يموت وهو يقاتل، بينما عاد الثاني، وهو عمرو بن أمية، إلى المدينة ليخبر النبي ﷺ بأن رجاله قد قتلوا، وبينما هو في طريقه صادف اثنين من بني عامر ظن أنهما مسؤولان عن الكمين فقتلتهما ثأراً للمسلمين،

وقد شعر النبي ﷺ بالحزن العميق لما جرى لرجاله، فقد كان ذلك يدل على أن الوضع يزداد خطراً وأن التحالفات والخيانات كانت تأخذ أشكالاً معقدة وخفية، كان بنو عمرو أوفياء للعهد الذي قطعه البراء ولذا فلم يكونوا هم المسؤولين عن قتل رجاله، وقرر النبي ﷺ الذي يلتزم التزاماً شديداً بعهوده، على الفور، بأن تُدفع دية الرجلين اللذين قتلتهما عمرو خطأً. فقرر الذهاب إلى يهود بني النضير يطلب منهم المشاركة في دفع دية القتيلين، إذ إن ذلك كان جزءاً من اتفاقية المساعدة المتبادلة بينهما، وكان محمد ﷺ يعرف أن بني النضير قد أصبحوا، منذ النفي الذي فرض على بني قينقاع، يشكون فيه، إن لم يكونوا معادين له وأنهم أقاموا صلات مع قبائل معادية للمسلمين، لذا فقد كان بالغ الحذر.

فقام بزيارتهم مع أصحابه المقربين، بمن فيهم أبو بكر وعمر وعلي -رضي الله عنهم-. كان تصرف بني النضير غريباً، ولم يفصح زعمائهم، ومن بينهم حيي، عن أي خطوات عملية لدفع دين الدية. فغابوا عن الأنظار فجأة، بحجة إعداد الطعام وجمع المبلغ اللازم، وقد شعر النبي ﷺ بحدسه أن زعماء بني النضير كانوا عازمين على الشر، فتهض وغادر المكان بهدوء، وظن أصحابه أنه سيعود. وعندما لم يعد، غادروا هم أيضاً المكان وتبعوه إلى منزله، حيث أخبرهم عما شعر بحدسه وأنبأهم بأن جبريل أخبره بأن بني النضير كانوا يريدون قتله، وهو ما أكدته سلوكهم الغريب أثناء وجود الوفد المسلم. لقد جعلت خيانة بني النضير، الذين كانوا يسكنون ضمن المدينة ذاتها، من المتعذر على المسلمين وضع إستراتيجية دفاعية، كان على النبي ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة.

فأرسل محمد بن مسلمة إلى بني النضير ليخبرهم بأنهم خانوا اتفاقية المساعدة المتبادلة وأن أمامهم عشرة أيام لمغادرة المكان مع نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم، وإلا فإنهم سيقتلون.

شعر بنو النضير بالحزن واستعدوا للمغادرة، لكن عبد الله بن أبي ابن سلول، المنافق، ذهب إليهم ونصحهم بعدم مغادرة المدينة، وتعهد بأن يقدم لهم مساندته الأكيدة من الداخل، وقد استمع إليه رؤساء بني النضير وأبلغوا محمداً ﷺ بأنهم لن يغادروا المدينة، كان هذا، عملياً، إعلان حرب.

قرر النبي ﷺ على الفور محاصرة الحصن الذي لجأ إليه بنو النضير. وقد دهشوا في أول الأمر من ذلك الإجراء السريع، لكنهم كانوا يأملون بأن يأتي ابن أبي أو حلفاؤهم، أي قبيلة بني قريظة اليهودية، لإنقاذهم لكنهم لم يأتوا، وبعد عشرة أيام أصبح الوضع لا يطاق بالنسبة لهم، في هذا الوقت قرر النبي ﷺ أن يقطع أطول أشجار النخيل، التي كانت ترى من الداخل، والتي كانت خارج الحصن. وكانت أشجار النخيل أثمن مورد للمدينة. في قطع محمد ﷺ لهذه الأشجار كان يحاول إقناعهم بأنه لن يبقى أي شيء ذو قيمة في المدينة، كانت تلك المرة الوحيدة التي ألتف فيها محمد ﷺ الشجر أو أي شيء آخر في الطبيعة، في الحرب أو في السلم.

كان هذا وضعاً استثنائياً لدرجة أنه نزل فيه وحي صريح: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (2). ولم يكرر النبي ﷺ أبداً القيام بأي عمل ينطوي على عدم احترام الطبيعة،

وكان يكرر دائماً، كما سنرى، بأن ذلك الاحترام يجب أن يكون تاماً، حتى في زمن الحرب، وقد أكد الوحي الذي نزلت به الآية أنفة الذكر بحد ذاته القاعدة التي وضعت استناداً إلى ذلك الاستثناء الوحيد.

أثبتت هذه الإستراتيجية نجاحاً تاماً، فقد استسلم بنو النضير المحاصرون وحاولوا التفاوض بشأن شروط نفيهم، قبل الحصار كان النبي ﷺ قد عرض أن يدعهم يرحلون مع ممتلكاتهم لكن بني النضير رفضوا. أما الآن فقد أصبحوا في موقف ضعيف، فاستناداً إلى نص تهديدات النبي ﷺ، كان المفروض أن يقتلوا، وعلى أي حال، فقد أصبح السماح لهم الآن بأخذ ممتلكاتهم غير وارد، وقد تجاهل النبي ﷺ تهديده لهم بالقتل وأمرهم بمغادرة المدينة ومعهم نساؤهم وأطفالهم فقط، غير أن زعيم بني النضير، حُيي، حاول مع ذلك التفاوض مع النبي ﷺ فسمح لهم في خاتمة المطاف بالمغادرة مع جميع حاجياتهم وممتلكاتهم التي تستطيع إبلهم حملها، وقد وجدوا ملجأ لهم في خيبر في خاتمة المطاف مع ذلك⁽³⁾. فهو لم يقتصر فقط على عدم تنفيذ تهديده، حيث إنه أحجم عن قتلهم، بل سمح لهم بأن يأخذوا كمية كبيرة من ممتلكاتهم. كان محمد ﷺ سمحاً سخياً دائماً وليناً بعد المعارك، رغم خيانات أعدائه وإنكارهم للجميل. وقد كان قد وجد بعض الأسرى الذين عفا عنهم بعد معركة بدر بين أشد أعدائه في معركة أُحُد، وسوف يحدث ما هو شبيه بذلك هذه المرة أيضاً. فبعد بضعة أشهر من السماح لبني النضير بالنجاة سوف يجد بعض زعماء القبيلة وغيرهم من أفراد القبيلة بين الأحزاب الذين كانوا سينضمون إلى قريش بعد بضعة أشهر.

تحسن وضع المسلمين جزئياً، لكن الأخطار ظلت محدقة بهم ومتعددة. فبعد أحد كان أبو سفيان قد قال لعمر رضي الله عنه وللنبي صلى الله عليه وسلم بأنهم سيتلاقون في العام القادم في بدر، وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم التحدي. ولم يكن يريد أن يتراجع عن كلمته، لذا فقد ذهب إلى بدر في جيش من ألف وخمسمئة رجل، وانطلق أبو سفيان مع ألفين من الجنود، لكنه توقف في الطريق وعاد أدراجه، وبقي المسلمون في المكان ثمانية أيام ينتظرون قريشاً، لكنهم لم يظهروا، لقد برّ المسلمون بوعدهم وأدى هذا التقيد بوعدهم وهذه الثقة في وجه التحدي إلى طمأننتهم وتعزيز هيبتهم.

التميز والتفرد

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكن لأحد صحابته، المدعو بأبي لبابة، احتراماً شديداً لدرجة أنه تركه مسؤولاً عن المدينة عندما انطلق إلى معركة بدر الأولى. وبعد فترة من الوقت، جاء يتييم صغير السن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه أن أبا لبابة أخذ منه نخلة كانت ملكاً له منذ وقت طويل، فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وطلب تفسيراً لموقفه، أظهر الاستقصاء أن النخلة كانت ملكاً لأبي لبابة بالفعل، فحكم له بها، الأمر الذي أصاب اليتيم الذي فقد أثمن ما يملكه، بخيبة أمل شديدة، وقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم من أبي لبابة، بعد أن حكم بالعدل، أن يعطي اليتيم تلك الشجرة التي كانت تمثل له شيئاً عظيم الأهمية، رفض أبو لبابة رفضاً قاطعاً. ففد بذل جهوداً كبيرة لإثبات حق ملكيته حيث إن إمكان الاستجابة لذلك الطلب كان غير وارد بالنسبة إليه، هذا الهاجس غطى على قلبه وعلى مشاعر الرحمة، وقد ذكر الوحي

لاحقاً، على الصعيدين الفردي والجماعي، بالطابع الفريد للراقي الروحي الذي يتيح بلوغ ما هو أبعد من الشعور بالعدل، الذي يطالب بالحق، إلى تميز القلب الذي يغفر أو الذي يعطي الناس أكثر من استحقاقهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (4).

لم تكن المسألة تتعلق بالتخلي عن الحق (كان أبو لبابة محقاً في طلب الاعتراف بذلك الحق)؛ بل إنها كانت مسألة التعلم أن يتجاوز المرء ما هو حق له في بعض الأحيان، في سبيل الأسباب القلبية التي تغرس في الذهن الغفران والسماح وبذل النفس والمال تلبية لدوافع الإنسانية أو المحبة المشتركة، حزن النبي ﷺ جراء موقف أحد صحابته الذي كان يكنّ له احتراماً شديداً؛ لقد أدرك أن تعلق أبي لبابة، الذي كاد يكون تعلقاً أعمى بإحدى توصيات الإسلام، وهي العدل، قد منعه من بلوغ المستوى الأسمى لعدالة القلب: التميز، والسخاء، والبذل. في خاتمة المطاف، عرض صحابي آخر، ثابت بن دحنة ؓ - الذي شهد ما جرى، على أبي لبابة بستاناً كاملاً مقابل نخلته، وأعطاهما بعدئذ إلى اليتيم، وقد فرح النبي ﷺ بهذه النتيجة ولم يستنكر موقف أبي لبابة، فقد عهد إليه لاحقاً بمهمة أخرى، وهي إبلاغ بني قريظة بشروط استسلامهم، ونفذ أبو لبابة المهمة التي أسندت إليه لكنه لم يقاوم الإفراط في الحديث، فقد خجل من سلوكه وقام بربط نفسه في شجرة ستة أيام، آملاً أن يغفر له الله والنبي ﷺ هفوته وعدم إخلاصه، وجاء العفو وقام النبي ﷺ نفسه بفك أربطة أبي لبابة، هذه الحادثة الفردية تدل على أن التزكية الروحية لم تتحقق كلياً على الدوام، وأن الضمائر كانت تتعرض دائماً للاختبار وأن النبي ﷺ كان يقرن تعاليمه بالصرامة ولكن أيضاً بالنزعات الخيرية.

كان النبي ﷺ، منذ بعض الوقت، قد تزوج أرملة اسمها زينب من عشيرة بني أمير وكانت معروفة بسخائها ومحبتها للفقراء، وكان قد أقام صلوات من خلال ذلك الزواج مع قبيلتها التي ظلت مخصصة له رغم الضغوط الداخلية والخارجية التي كانت تمارس عليها، كانت زينب - رضي الله عنها - التي كانت تعرف بأُم المساكين، شديدة الورع وجاءت لتسكن في مسكن أقيم لها قرب المسجد، غير أنها توفيت بعد ثمانية أشهر من عرسها ودفنت بالقرب من رقية، ابنة النبي ﷺ، وبعد بضعة أشهر تزوجت أم سلمة - أرملة أبي سلمة، التي هاجرت معه إلى الحبشة - النبي ﷺ وسكنت في المقر الذي ظل شاغراً بعد زينب، كانت أم سلمة - رضي الله عنها - تقية ومقدامة وذات جمال باهر، وكان لها مركز ودور مهم في وقفها إلى جانب النبي ﷺ. وقد أقرت عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تشعر بالغيرة من أم سلمة - رضي الله عنها - بسبب جمالها ولأن النبي ﷺ كان يستمع إليها ويتأثر كثيراً بأرائها.

واصل النبي ﷺ، حسبما كانت تسمح به الظروف ورغم الصعوبات، في نشر تعاليم الإسلام وتطبيقها بنفسه. فقد انتزع أحد الصحابة مرة فرخ طائر من عشه وقامت أمه بمهاجمته فجأة دفاعاً عن وليدها، فطلب إليه النبي ﷺ إعادة الفرخ إلى العش وقال لمن كانوا حوله: «إن الله أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»⁽⁵⁾. كان يعلمهم التأمل في خلق الله وأخذ الدروس من الطبيعة التي تحيط بهم وأصغر عناصر الحياة، وقد تكررت هذه الدعوة في الآيات التي كانت تنزل عليه:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽⁶⁾.

وفي آية أخرى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (7).

والطير في السماء تشهد على ذلك:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (8).

وسوف يؤكد الوحي لاحقاً أهمية القيم الروحية التي تتجلى من خلال الملاحظة والتأمل وذكر الله، وترتبط بالتذكير المتواصل بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى وفضله على قلوب البشر. «يخاطب الله العين المادية والعقل ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾»، ويمضي مخاطباً عين القلب والإيمان (9). هذه التعاليم كانت تشكل وتقوّل القوة الروحية للنبي ﷺ كان يعرف مصدر قوته وضعفه، وعندما كان أعداؤه يحاولون خداعه وتدميره، وقد ذكره الله بفضله عليه وحمايته له في مواقف وضعفه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (10).

إن آيات الخلق وقدرة النبي ﷺ على التفكير في الأحداث أو تفاصيل الحياة الصغيرة وتقبل صدقة القلب التي تتمثل بكلمة طيبة (الكلمة الطيبة صدقة) (11). أو من خلال التبسم في وجه أخيه الإنسان (إن التبسم في وجه أخيك صدقة) (12)، كل هذا أعطاه القوة على المقاومة والصبر، إن

كون الإنسان دائماً مع الله الأحد، وتذكر وجوده من خلال نظره أو التفاته كونه الولي الذي يحميه بدلاً من كونه القاضي أو الناقد - هذا هو معنى الإحسان، قوة القلب والإيمان: (الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك) (13).

كان أصحابه يرون هذه الصفات فيه ويحبونه ويستمدون طاقتهم الروحية من خلال وجوده بينهم، وكان يعلمهم مواصلة تعميق هذا الحب: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وابنه وولده ونفسه التي بين جنبيه» (14). كان يعلمهم أن يواصلوا سعيهم الروحي ومحبتهم، بينما كان يذكرهم بأن تلك الصلة الحميمة تتجاوز قدرته البشرية ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ (15). كان هو القدوة والنموذج الذي كان يعيش بينهم ويمنح حبه إليهم جميعاً وإلى الفقراء وإلى المسنين، وكان يظهر الكياسة والاحترام للنساء ويهتم بالأطفال، كان جَدًّا يحمل أحفاده على ظهره أثناء الصلاة في المسجد، ويجسد القدوة والمثل بأن المرء لا يستطيع أن يذكر الله ويكون قريباً منه دون التحلي بالسخاء والاهتمام بالآخرين.

وقد أكد الوحي مكانته المتفردة في كثير من المجالات، وكان الله يطلب منه ممارسة أكثر شدة، لا سيما بشأن قيام الليل، ولم يكن لالتزاماته إزاء جبريل وإزاء الله مثيل، وعلى صعيد آخر، كان القرآن قد حدد للمؤمنين أربع زوجات لكنه ثبت تفرد النبي ﷺ في هذا الصدد. كما أن القرآن ذكر زوجاته بأنهن ﴿لَسَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (16). فمنذ ذلك الحين فرض عليهن ستر وجوههن ومخاطبة الرجال من وراء حجاب، وتم إبلاغهن بأنه لا يجوز لهن معاودة الزواج بعد وفاة النبي ﷺ. وفي ضوء الحدود

القرآنية تزوج محمد ﷺ امرأة أخرى اسمها زينب وهي مطلقة رقيق محمد ﷺ السابق زيد، الذي أصبح يعرف بابن محمد ﷺ بعد أن تبناه النبي ﷺ لكنه عاد إلى اسمه الأول، ابن حارثة، لأنه لم يكن ابن النبي ﷺ بيولوجياً. وقد جاء في القرآن تعليقاً على ذلك: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٧﴾.

الأحزاب

ذهب عدد كبير من بني النضير ليستقروا في خيبر بعد نفيهم من المدينة، وكانوا يشعرون بحقد شديد على النبي ﷺ ويتطلعون إلى ثأر سريع، وكانوا يعلمون، كغيرهم من قبائل الجزيرة، أن قريشاً كانت تعد العدة للقيام بهجوم واسع النطاق للقضاء على المسلمين ووضع حد نهائي لرسالة محمد ﷺ. وقد ذهب حُيي، زعيم بني النضير إلى مكة مع الزعماء اليهود من خيبر لإبرام تحالف مع قريش لم يترك أي مجال للشك، لابد من مهاجمة محمد ﷺ وجماعته والقضاء عليهم، لتحقيق ذلك، اتصلوا بقبائل أخرى لضمها إلى الحلف؛ وقد انضم إلى الحلف بنو أسد وبنو غطفان وبنو سليم، فقط بنو عامر، الذين تزوج النبي ﷺ واحدة من نسائهم، والذين أظهروا ولاء ثابتاً (باستثناء بعض الأفراد الذين خانوا العهد)، رفضوا الانضمام إلى الحلف الجديد لأنه سبق لهم أن تعاقدوا مع محمد ﷺ.

كانت القوات التي تجمعت ضخمة، وعندما سارت الجيوش إلى المدينة، بدا أن المسلمين لن يكون لهم طاقة في مواجهتهم، وكان عدد

أفراد جيش قريش وحلفائهم من الجنوب يزيد على أربعة آلاف، وُجِعَ جيش آخر، جاء من نجد في الشرق، مكون من مختلف القبائل، ما يزيد على ستة آلاف رجل، وكان من المقرر مهاجمة المدينة من جهتين، ثم يتم تطويقها بواسطة عشرة آلاف محارب: من غير المتصور أن يخرج سكانها سالمين. وعندما انطلقت الجيوش، أرسل عم الرسول ﷺ، العباس، سراً، وفداً إلى المدينة لتحذير النبي ﷺ بشأن الهجوم المتوقع، وعندما وصل الوفد إلى المدينة، كان أمام أهل المدينة أسبوع واحد أو أقل لوضع إستراتيجية للمقاومة، ولم يكن بوسعهم جمع أكثر من ثلاثة آلاف من الجند، أي أقل من ثلث قوة العدو.

تمشياً مع عادة النبي ﷺ فقد جمع أصحابه وتشاور معهم بشأن الموقف والخطة التي يتعين اعتمادها، قال بعضهم بوجوب الخروج من المدينة ومواجهة العدو، مثلما فعلوا في معركة بدر، ورأى آخرون أن فرصتهم الوحيدة تكمن في بقائهم داخل المدينة، وأنه يجب استخلاص العبر من هزيمة أحد، وكان بين الصحابة رجل فارسي اسمه سلمان (الفارسي)، قدم اقتراحاً فريداً في نوعه من عدة جوانب، لقد كان دائم البحث عن الحقيقة عن الله، وكان قد سافر إلى مكة على أمل أن يعيش بجوار النبي ﷺ. ولم تسعفه الظروف وبيع في خاتمة المطاف إلى قبيلة بني قريظة، وقد جمع النبي ﷺ والصحابة المبلغ اللازم لتحريره من الرق وكان قد أصبح واحداً من الصحابة مدة من الوقت، وقد شارك في اجتماعاتهم وتميز بتقواه وإخلاصه، فعندما نهض ليتكلم، اقترح إستراتيجية لم تكن معروفة عند العرب حتى ذلك الوقت: «يا رسول الله، كنا بفارس إذا حوصرنا

خندقنا علينا»⁽¹⁸⁾. كانت الفكرة غير متوقعة، لكن جميع الصحابة أعجبوا بها وقرروا تنفيذها، كان عليهم العمل بسرعة، حيث لم يكن لديهم سوى أسبوع واحد لحفر خندق واسع بما يكفي لمنع الجياد من القفز من فوقه.

كانت هذه المواجهة الرئيسة الثالثة مع قريش، وكانت في الواقع الإستراتيجية الثالثة التي اعتمدها المسلمون، في بدر تجمعوا حول الآبار، وفي أحد، لم يكن لإستراتيجية استخدام التل أي صلة بالأسلوب الراهن المتمثل بالانتظار وإبقاء العدو على مسافة منهم، والتي بدا أنها الوسيلة المتاحة الوحيدة لمقاومة الهجوم، وربما، إذا استمر الحصار، إعطاء الذين هم داخل المدينة فرصة للمقاومة، هذا الابتكار في الإستراتيجية العسكرية يبين الطريقة التي كان النبي ﷺ يعلم فيها أصحابه الإيمان العميق واستغلال الإبداع الفكري في كافة الظروف، فلم يترددوا في استعارة أسلوب حربي أجنبي، اقترحه عليهم رجل فارسي، وتكييفه مع وضعهم في المدينة، فقد تم التكامل بين عبقرية الشعوب وحكمة الأمم والابتكار البشري السليم في نمط تفكيرهم، دون تردد أو خوف، وكما أكد النبي ﷺ بشدة: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها هو أحق بها»⁽¹⁹⁾. كانت هذه دعوة إلى دراسة أفضل ما تمخض عنه الفكر البشري واعتماده بوصفه جزءاً من التراث الإيجابي للبشرية (المعروف بأنه للخير العام). وعلى صعيد أوسع، فقد كانت إظهار الفضول المعرفي والابتكار والإبداع في إدارة الشؤون الإنسانية، وقد ظهر هذا ليس فقط في طريقته في الحرب وإستراتيجياتها، بل أيضاً، كما رأينا، من خلال طريقته في النظر إلى عالم الأفكار والثقافة.

الخدق

بدأ العمل على الفور وشاركت المدينة برمتها، فقررُوا أين يجب حضر الخندق والأمكنة التي من شأن الصخور والتضاريس في المنطقة أن تحول دون دخول العدو حيث لا يكون الخندق ضرورياً، كانت أيام العمل طويلة لأن الصحابة كانوا يعملون منذ صلاة الفجر حتى الغروب.

وقد شارك محمد ﷺ في العمل، وكان الصحابة يسمعونهُ وهو يدعو الله في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى ينشد الأشعار وأحياناً يغني ويشتركون معه في الغناء في تلك اللحظات التي كانوا يقضونها في العمل الجماعي، كانت وسيلة لإحلال الأخوة بينهم والشعور بالانتماء، كما أنها أتاحت الفرص للتعبير الجماعي عن المشاعر والطموحات والآمال، وقد مكن النبي ﷺ من خلال الدعاء والشعر والغناء الرجال في مجتمعه - عدا عن اشتراكهم في الإيمان والصلاة - من التواصل عبر الإفصاح عن المشاعر وموسيقى القلوب التي تعبر عن الانتماء إلى تعبير مشترك عن الذات والخيال الجماعي والثقافة، لقد كانوا موحدين لا من خلال ما تلقوه من الواحد الأحد فحسب - والذي كانوا يؤمنون به - بل أيضاً في طريقتهم في التحدث عن أنفسهم، والإعراب عن مشاعرهم والتأمل في مركزهم في الكون، إن المشاركة الإيمانية، والمعاني الحميمة، لا يمكن أن تظل مفاهيم مجردة بحتة، فهي لا تستطيع المحافظة على طاقتها التي تبعث الحياة إلا إذا اقترنت بالمشاركة في الكلام والأفعال ضمن مساحة مشتركة من المرجعيات الاجتماعية والثقافية، فالإيمان بحاجة إلى ثقافة، وهكذا فعندما كان محمد ﷺ يريد توحيد طاقات أصحابه، كان يستدعي كافة مستويات وجودهم في العالم بغية ترقية وحدة

أمتة: الإيمان العميق بالواحد الأحد، الصياغة الشعرية للمشاعر، وموسيقية أغنية المشاعر، وكان يبرهن، من داخل أمتة والمشاركة في حياتهم اليومية، على أنه حين كرّس نفسه للواحد الأحد حقاً، بما يتجاوز الزمان والمكان، فإنه كان يعيش تاريخهم ويشترك في ثقافتهم: فقد كان واحداً منهم.

كان الخندق الذي أخذ يبرز مع سير العمل نجاحاً عظيماً: فسوف يتعذر على فرسان العدو عبوره في أي نقطة، وسيكون بوسع الرماة المسلمين منعهم، دون صعوبة، من القيام بأي محاولة جريئة، وقبل استقرار أهل المدينة داخلها، قاموا بجمع جميع المحاصيل في الواحة حتى يضطر العدو إلى الاعتماد على احتياطيه من الغذاء، كانت جيوش العدو تقترب، وسارع المسلمون إلى داخل المدينة، خلف الخندق، انتظاراً للعدو.

الحصار

وصلت الجيوش إلى جنوب وشرق المدينة وعسكرت هناك، وقد تملكتهم الدهشة لدى رؤية الخندق، وهو ما أفشل خطتهم في تطويق المدينة واجتياحها في هجوم مشترك من كافة الجهات، لقد كان الخندق حقاً تقنية حربية غير معروفة للعرب، لذا فقد كان على الأحزاب التفكير في خطة بديلة لهزيمة المسلمين.

بدأت المشاورات بين مختلف القبائل للاتفاق على أفضل وسيلة لتقصير مدة الحصار والاستيلاء على المدينة، ودون إمدادات غير تلك الخاصة بهم، لم تكن حرب طويلة الأمد واردة، فقرروا أن تتجمع الغالبية العظمى من القوات في الشمال بغية تحريك قوات المدينة في ذلك الجانب بينما

يحاول الآخرون اجتياز الخندق من الجنوب غير المحروس في ذلك الوقت، حيث بدا أن الوصول قرب الصخور أسهل منالاً، وكانت قبيلة بني قريظة اليهودية تعيش في تلك المنطقة وسبق لها أن وقعت اتفاق مساعدة مع محمد ﷺ، لكنها قد تشكل النقطة الضعيفة في وحدة المدينة. وقد أصر حُيي، رئيس بني النضير، على الذهاب إلى حصن بني قريظة للتحدث إلى رئيسهم، كعب بن أسد، ومحاولة إقناعه بفسخ تحالفه مع محمد ﷺ. في أول الأمر رفض كعب بن أسد استقبال حُيي، لكن ذلك الأخير أصر بشدة جعلت رئيس بني قريظة يسمح لنفسه بالرضوخ، أولاً بغية الاستماع لما يقوله، ثم خيانة العهد، هذا الانحياز كان يعني أن إستراتيجية أهل المدينة قد انهارت، إذ إن تحالف بني قريظة مع العدو كان يعني فتح ثغرة من الداخل وفتح المجال أمام العدو لدخول المدينة، مما كان سيؤدي إلى هزيمة مؤكدة وإبادة مؤكدة للمسلمين.

لم يكن جميع بنو قريظة راضين عن قرار زعيمهم، وحدث توتر ضمن المجموعة، لكن الغالبية العظمى وافقوا على الانضمام إلى قوات قريش وحلفائها، في غضون ذلك كانت استطلاعات النبي ﷺ لتحركات قوات العدو في الشمال قد جعلته يتوقع حدوث حيلة، لذا قرر التأكد من مدى الثقة بحلفائه في الجنوب؛ لأنه كان يعلم أن بني قريظة كانوا أبعد من أن يكونوا منحازين إليه، في غضون ذلك، سمع إشاعات بأن زعماء بني قريظة قد نقضوا العهد من جانب واحد، فإذا تبين أن الإشاعات صحيحة، فإن معنويات جيش المسلمين لن تنهار فحسب، لكن فرص نجاحهم ستكون شبه معدومة، فأرسل اثنين لاستطلاع الأمر والتصرف بحكمة: فإذا كانت الإشاعات لا نصيب لها من الصحة، فإن عليهم الإعلان عن ذلك

بشكل واضح بغية طمأنة المحاربين وإعادة الشجاعة إليهم، أما إذا كانت صحيحة فقد طلب منهم أن يخبروه بشكل خفي، كانت الأخبار صحيحة، حسب رواية المستطلعين، وكان يتوجب على محمد ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة، فأرسل زيدا إلى الجهة الجنوبية مع ثلاث مئة رجل لمنع العدو من القيام بأي محاولة للعبور بمساندة بني قريظة.

أصبح تحمل الحصار يزداد صعوبة وكان على المسلمين أن يكونوا دائماً يقظين وعلى أهبة الاستعداد، وفي أحد الأيام، تعددت الهجمات وجاءت من عدة جهات حتى أن المسلمين لم يستطيعوا أداء صلاة الظهر والعصر في وقتها المحدد، ولا بعد صلاة المغرب. وقد شعر النبي ﷺ بالضييق وبدأ الحصار يؤثر على معنويات الصحابة، وقد وصف الوحي وضعهم في هاتين الآيتين:

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝٢٠﴾ (20).

كانت المحنة صعبة، وكشفت عن القبائل والأفراد الصادقين والمخلصين. فالحرب لم تكشف عن خيانة عشيرة بن قريظة فحسب، بل كشفت مرة ثانية المنافقين الذين سارعوا إلى التفكير في إعادة النظر في التزامهم أو حتى في الاستسلام، جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝٢١﴾ (21). وأراد بعضهم العودة إلى أهلهم، وقالوا: ﴿إِن يَبُوتَا عَوْرَةً ۝٢٢﴾ (22). وكان آخرون لا يريدون سوى الفرار من القتال وحماية أنفسهم، إذ إنه بدا

من الواضح لهم أن دفاع المسلمين سوف ينهار قريباً، وبدأ أن المقاومة عدة أيام بهذه الطريقة متعذرة.

غير أن الغالبية العظمى من المسلمين كانوا أوفياء للنبي ﷺ وقدوته وكانوا يشاركونه تصميمه وثباته، وقد نزل الوحي مشيراً إلى هذه الأزمة التي أظهرت قوة الإيمان وصدقه والإخلاص للواحد الأحد، وإلى الرسول القدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (23).

إن معنى الآية يتجاوز كثيراً ظروف تلك المعركة، فهي تنبئ عن دور النبي ﷺ ومركزه في حياة كل مسلم، لكنها ترسم بعداً أقوى بكثير عندما نتذكر ظروف نزولها: جماعة محاصرة، مهزوزة، غير قادرة، من المنظور والفكر البشري، أن ترى أي مهرب من الكارثة الوشيكة، وقد تضاءلت صفوفها من خلال الفرار والخيانة، وتتوحد وتلتف حول الرسول ﷺ ودينه وثقته، وقد أكد الوحي ذلك:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (24).

فيما كان الاحتياج على أشده، كان النبي ﷺ منزعجاً لعدم تمكنه من أداء مختلف الصلوات في مواعيدها المحددة، هذا الوعي للنظام لم يكن يغادر الرسول ﷺ أبداً، فقد كان حريصاً جداً على عباداته اليومية، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (25). فتفويت أوقات الصلاة كان يمس قلبه ويجعله شديد الاستياء من الذين

اضطروه إلى ذلك، وقد شهد جميع الصحابة، في جميع ظروف حياته، هذا الجمع الذي يثير الدهشة بين طيبة قلبه اللانهائية وتصميمه الذي لا يلين في الشدائد وحرصه الشديد على الأوقات والمواعيد، وقد روى ابن عباس — رضي الله عنهما — لاحقاً أنه رأى النبي ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر وبين صلاتي المغرب والعشاء دونما سبب ظاهر، وأدرك الفقهاء المسلمون جواز ذلك أثناء السفر أو في وضع استثنائي، لكن السُّنة تظل في حياة النبي ﷺ سارية بشأن ضرورة المراعاة التامة للصلاة، وهي تذكر بالعلاقة المتميزة بالواحد الأحد والشعور بها، هذا ما يؤكده القرآن حين يروي مناداة الله لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (27).

حيلة

كان المسلمون في وضع حرج، لكن مع مرور الأيام وجد الأحزاب أنفسهم في وضع مختلف؛ لأنه لم يكن لديهم الكثير من الطعام وكانت الليالي شديدة البرودة، وقد حاول النبي ﷺ التفاوض بشأن تخلي عشيرتين من قبيلة غطفان عن الأحزاب فعرض عليهم ثلث محصول المدينة من التمور؛ فأجابوا مبعوثه بأنهم يريدون نصف المحصول، لكن النبي ﷺ أصر على ما عرضه عليهم فقبلوا في خاتمة المطاف، وقبل إرسال عثمان بن عفان لإبرام الصفقة، استشار النبي ﷺ زعيم عشيرتي المدينة الرئيسيتين، الأوس والخزرج، بما لديهم من معرفة بالعشائر المجاورة، فسألوا إن كان عرضه وحياً أو اختياراً شخصياً، وعند سماعهم أنه مبادرة شخصية

الفرض منها حمايتهم، رفضوا شروط الاتفاق وأبلغوا الرسول ﷺ أنه بالنظر للوضع، فإن القتال هو الطريقة الوحيدة للنجاة.

في تلك اللحظة، زار النبي ﷺ نعيم بن مسعود، وهو من كبار رجال قريش ويلقى احترام جميع قبائل الجزيرة، وقد جاء ليقول للنبي ﷺ إنه اعتنق الإسلام وأنه ما من أحد يعرف ذلك حتى ذلك الوقت وأنه يضع نفسه تحت تصرف النبي ﷺ. وكان نعيم معروفاً لدى جميع الزعماء المحاصرين للمدينة ويحظى باحترامهم. وكان محمد ﷺ يعرف ذلك فقال له: «إن استطعت أن تخذل عنا الناس فافعل!». وقد سأل نعيم إذا كان من المسموح به أن يكذب، فأجابه النبي: «افعل ما بدا لك فأنت في حل، إنما الحرب خدعة!» (28).

فلجأ نعيم إلى إستراتيجية فعالة، فذهب أولاً إلى بني قريظة وحذرهم بشأن نوايا حلفائهم الجدد، فقال لهم بأنه إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون، فإن الأحزاب لن يترددوا في أن يخذلوهم وأنه سيتم تركهم إلى محمد ﷺ دون أي حماية، فنصحهم بأن يطلبوا من القبائل الأخرى بعض رجالهم كرهائن ضماناً لعدم تخليهم عن بني قريظة، فأعجبتهم الفكرة وقرروا إرسال مبعوث إلى زعماء قريش لإبلاغهم بطلبهم، ثم أسرع نعيم إلى أبي سفيان ليحذره بأن بني قريظة يخدعونه وأنهم حلفاء لمحمد ﷺ في حقيقة الأمر، فقال له: إنهم سوف يطلبون منه إرسال رجال كعربون على إخلاصه، لكنهم يريدون في حقيقة الأمر أن يسلموهم إلى محمد ﷺ للدلالة على حسن نواياهم، وعندما جاء مبعوث بني قريظة إلى أبي سفيان وأخبره بطلب الرهائن، تأكد أبو سفيان من صدق نعيم وأن بني قريظة

كانوا يخدمونه في واقع الأمر، فقام على الفور باستدعاء زعيم بني النضير وسأله عن تلك الخيانة، دُهِش حُي في أول الأمر ولم يعرف ما يقول، وظن أبو سفيان أن في ذلك اعترافاً بالخيانة.

كانت أول علامات الانقسام تظهر في معسكر الأحزاب، فقد ساد جو من عدم الثقة المتبادلة بين بعض العشائر، بينما كانت عشائر أخرى قد ضاقت ذرعاً ببعضها البعض، وقد أضعفت الأنباء تصميم المقاتلين المتحالفين مع قريش كثيراً، وعمل الإرهاق والضعف ونقص الطعام على ازدياد مناخ الإحباط سوءاً، ثم هبت ريح صرصر عاتية على السهل أقنعتهم بأنه أصبح من المتعذر التغلب على مقاومة المدينة، وكان محمد ﷺ قد بلغه حالة الروح المعنوية المتدهورة في معسكر العدو فأرسل حذيفة ليستطلع الأمر ليلاً، وعاد حذيفة يحمل أبناء طيبة عن الفوضى العارمة السائدة فيهم وأن البرد قد أصابهم بالشلل، كان الرجال يستعدون للرحيل وارتحل الكثيرون من المقاتلين، وبشر النبي ﷺ أصحابه بالأنباء الطيبة بعد صلاة الفجر، حيث أظهر ضوء النهار أن العدو قد ارتحل، استمر الحصار الذي جرى في السنة الخامسة للهجرة (627م) خمسة وعشرين يوماً وعاد الأحزاب مخذولين لم يقاتلوا ويحملون عبء هزيمة حقيقية ورمزية.

بنو قريظة

سَرَّحَ النبي ﷺ رجاله وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم، فقد ارتحل العدو وُرُفِعَ الحصار، وابتهج أهل المدينة المرهقون والذين كانوا قد فقدوا الأمل وبلغوا نهاية قدرتهم على المقاومة، وفرحوا بالنتيجة، وعاد محمد ﷺ إلى

المنزل على الفور واستراح حتى صلاة الظهر، وبعد أن أدى الصلاة جاءه جبريل وأبلغه أن الله يأمره بالذهاب على الفور إلى بني قريظة الذين كادت خيانتهم تؤدي إلى إبادة جماعة المسلمين، وأن يحاصر حصنهم.

فدعا النبي ﷺ على الفور أصحابه وبقية المصلين في المسجد وطلب إليهم الاستعداد على الفور للذهاب إلى بني قريظة، وفيما كان المسلمون ينطلقون على شكل جماعات أمرهم النبي ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»⁽²⁹⁾. لم يكن هناك متسع من الوقت، ولم يتوافر للمسلمين، الذين كانوا قد تأملوا بأن يحصلوا على قسط من الراحة أخيراً، من الوقت سوى ما يكفي لجمع معداتهم وارتداء آلة الحرب، والانطلاق في إحدى الجماعات المتوجهة إلى بني قريظة. وقد ثار جدل عندما حان وقت صلاة العصر، فقد قال بعضهم، الذين كرروا أمر النبي ﷺ بحرفيته، بأنه يجب ألا يصلوا في الطريق بل عليهم الانتظار حتى يصلوا إلى بني قريظة⁽³⁰⁾. وجادل آخرون بأن قصد النبي ﷺ هو أن عليهم الإسراع إلى هناك، ولكن عند حلول وقت الصلاة فلا بد لهم من أدائها في وقتها بالطبع، وهكذا فإن بعضهم امتنع عن الصلاة التزاماً بحرفية كلمات النبي ﷺ، بينما صلى الآخرون، انطلاقاً من روح أمر النبي ﷺ. وقد سألوا النبي لاحقاً عن أي التفسيرين هو الصحيح فأقر الاثنين، هذا الموقف كان من شأنه أن يترتب عليه نتائج رئيسة لمستقبل الأمة الإسلامية، حيث إنه بعد وفاة النبي ﷺ برزت مدرستان فكريتان: أهل الحديث الذين التزموا، على غرار عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - انطلاقاً من روح الجماعة الأولى آنفة الذكر، بالمعنى الحرفي لأقوال النبي ﷺ المروية في السنة، وأهل الرأي، الذين

حاولوا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فهم القصد من الحديث، وروحه ومعناه المجازي في بعض المناسبات، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقرّ الرأيين ولذا فقد أظهر هذا الموقف طريقتين صحيحتين ومشروعيتين في الإخلاص للرسالة.

حاصر حصن بني قريظة نحو ثلاثة آلاف رجل، ومع أن بني قريظة وجدوا أنهم سقطوا في الفخ ولا يوجد لديهم طعام كاف، إلا أنهم قاوموا مدة خمسة وعشرين يوماً، فقد كان خوفهم عظيماً من المصير الذي كان ينتظرهم بعد تلك الخيانة الخطيرة، أرسل لهم النبي صلى الله عليه وسلم أبا لبابة، وهو رجل من الأوس (سبق له أن أبرم اتفاقاً مع بني النضير وبقي عملياً قريباً من بني قريظة) — لمناقشة شروط استسلامهم، لدى رؤيته لحالة الوحشة داخل الحصن، لم يسع أبو لبابة سوى أن يلمح لبني قريظة بأن مصيرهم سيكون الموت إذا استسلموا، وقد ندم ندماً شديداً لاحقاً على موقفه الذي كان من المحتمل أن يجعل بني قريظة لا يستسلمون أو أن يبحثوا عن مخرج آخر من خلال إقامة تحالفات أخرى، على أنهم قرروا فتح أبواب حصنهم والإقرار بالهزيمة.

وضعت النساء والأطفال تحت وصاية حاخام سابق، عبد الله بن سلام، ثم قيّد السبع مئة رجل وعزلوا في أحد الحقول، وجمعت حاجاتهم وممتلكاتهم وأسلحتهم لتُنقل إلى المدينة، فقام الأوس على الفور بإرسال وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه معاملة بني قريظة بالرحمة نفسها التي أظهرها سابقاً للجماعات الأخرى التي انحازت ضده، فسأل محمد صلى الله عليه وسلم الأوس: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» (31) فأجابوا بالإيجاب، لأنهم كانوا على قناعة بأن واحداً منهم لن ينسى

التحالفات السابقة، فأرسل النبي ﷺ وراء سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي كان لا يزال يعاني من جروح ويجري تمريضه في مسجد المدينة، وذهب وفد لإحضاره، كان النبي ﷺ حتى ذلك الوقت يبقي على حياة أسراه، وكما أوردنا آنفاً، فقد كان قد وجد بعض أسرى بدر الذين أبقى على حياتهم بين ألد أعدائه في معركة أحد اللاحقة، وحدث مثل ذلك مع بني النضير: فقد كان قد سمح لهم بالمغادرة مع نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، لكن كان زعيمهم، حُيي - لاحقاً - على رأس مؤامرة الأحزاب، وكان بين أسرى بني قريظة الكثيرون الذين تم نفيهم من بني النضير، وهكذا فإن رحمته لم يكن لها أي أثر على أولئك الذين استفادوا منها، الأمر الذي أرسل رسالة مشوشة في أنحاء الجزيرة: فقد أصبح الناس يقولون بأن محمداً ﷺ لا يقتل أسراه أبداً، خلافاً لعادة العرب بل وحتى عادة اليهود (32). فقد اعتبرت رحمته، التي لقيت خيانة متكررة علامة ضعف، إن لم تكن علامة جنون. ثم إن خيانة بني قريظة كانت على درجة من الخطورة بحيث إنه لو نجحت مخططاتهم، لأدت إلى إبادة المسلمين، الذين تعرضوا للخيانة من الداخل وإلى أن يسحقهم جيش يفوق عدده العشرة آلاف مقاتل.

وصل سعد بن معاذ رضي الله عنه أخيراً إلى بني قريظة، وأراد قبل كل شيء أن يلقي حكمه احترام الجميع، فخاطب زعماء مختلف الجماعات الذين تعهدوا الواحد تلو الآخر بالتقيد بالقرار الذي يصدره، ثم خاطب النبي ﷺ الذي أكد له بأنه لن يعارض الحكم الذي يصدره، فأصدر ابن معاذ حكمه بإعدام الرجال واعتبار النساء والأطفال أسرى حرب، قبل محمد ﷺ الحكم الذي تم تنفيذه خلال الأيام اللاحقة، وتم افتداء عدد من

الأسرى من قبل بني النضير وريحانة- وهي أسيرة من بني قريظة- كانت في الأصل من بني النضير وأصبحت جارية لدى النبي ﷺ. وقد اعتنقت الإسلام، لكن اختلفت الروايات عن مصيرها لاحقاً. تقول بعض المصادر بأن النبي ﷺ حررها وتزوجها بينما روت مصادر أخرى بأنه إنما تزوجها فقط. وجاء في مصادر أخرى أنها رفضت وظلت خادمتة مدة خمس سنوات، حتى وافتها المنية⁽³³⁾.

انتشرت أنباء انتصار المسلمين في أنحاء الجزيرة: وغيّرت تغييراً جذرياً الآراء وموازين القوى، فالمسلمون لم يقاوموا جيشاً بلغ أكثر من عشرة آلاف محارب فحسب بل لقد أظهروا أيضاً تصميمًا لا يلين. هذا ويُعدّ المصير الذي آل إليه رجال بني قريظة رسالة قوية لجميع القبائل المجاورة مفادها أن الخيانات والأعمال العدوانية سوف تلقى عقاباً شديداً بعد ذلك الوقت، وقد وصلت الرسالة: فمثل هذا الوضع لم يتكرر أبداً طيلة حياة النبي ﷺ.

زينب وأبو العاص

كانت زينب - رضي الله عنها - ابنة النبي ﷺ قد تزوجت أبو العاص الذي لم يعتنق الإسلام، وكانت قد بقيت معه في مكة في بادئ الأمر، إلى أن طلب منها النبي ﷺ أن تلحق به إلى المدينة مع ابنتها الصغيرة أمامة. كانت زينب - رضي الله عنها - تحب زوجها حباً جماً لكن وجهة كل منهما المختلفة في الحياة قد جعلتهما يفترقان في خاتمة المطاف، غير أن أياً منهما لم يتزوج ثانية.

بعد بضعة أشهر من معركة الخندق، أرسل النبي ﷺ سرية لاعتراض سبيل قافلة لقريش آتية من الشمال، وقد استولى زيد رضي الله عنه، الذي كان يرأس فرسان المسلمين، على بضائع القافلة وأسّر معظم رجالها، بينما استطاع آخرون الإفلات، وكان أبو العاص من بين أولئك الآخرين، وقد قرر في رحلة عودته إلى مكة أن يعرج على المدينة ويقوم بزيارة خفية لزوجته وابنته، كان هذا ضرباً من الجنون بحد ذاته، لكن رغبته في رؤية زوجته وطفله كانت أقوى من إدراكه للمخاطر التي ينطوي عليها قراره، فطرق باب زوجته ليلاً وأدخلته زينب - رضي الله عنها - إلى بيتها، فمكث عندها وعند اقتراب الفجر ذهبت زينب - رضي الله عنها - إلى المسجد لأداء الصلاة كما كانت تفعل دائماً، فدخلت المسجد ووقفت في صف النساء الأول، مباشرة خلف الرجال، وعندما أقام محمد ﷺ الصلاة، انتهزت فرصة التريث القصير لتقول بأعلى صوتها: «أيها الناس! لقد أجرت أبا العاص بن ربيع!» بعد انتهاء الصلاة عمل النبي ﷺ الذي لم يكن يدري بما كان قد جرى بين ابنته وزوجها، على أن يؤكد جمهور المصلين أنهم سمعوا إجارتها لأبي العاص، وأصرّ أن الحماية التي منحت - سواء أكانت من قبل ابنته أم من قبل أي مسلم آخر - يجب أن تحترم، ثم ذهب إلى ابنته التي أخبرته بالموقف الذي يواجهه أبو العاص، الذي أخذت كافة بضائعه خلال الغزوة التي جرت مؤخراً في الشمال، والذي أصبح الآن غارقاً في الدين لأن تلك البضائع قد ائتمنه عليها أهل مكة، واقترح محمد ﷺ على الذين كانت البضائع في حوزتهم أن يعيدوها إلى أبي العاص إذا أحبوا فاستجاب له الجميع، وقد نصح بعض الصحابة أبا العاص أن يدخل في الإسلام ويحتفظ بتلك الممتلكات لنفسه.

لكنه رفض قائلاً إن اعتناق الإسلام والشروع بخيانة ثقة الناس لن يكون عملاً لائقاً، فأخذ كافة البضائع وعاد إلى مكة وأعطى كل ذي حق حقه، ثم عاد إلى المدينة واعتنق الإسلام واجتمع شمله بزينب - رضي الله عنها - وابنتها أمانة.

وهكذا، فقد كان كرم المسلمين الأوائل واستقامتهم واضحين لجميع العيون، فكما هو حال النبي ﷺ، فإنهم لم يطلبوا شيئاً من أبي العاص: فهو لم يكن مسلماً، وكان ينتمي إلى عشيرة من أعداء المسلمين ورفض اعتناق الإسلام، لكنهم أطلقوا سراحه، وسمحوا له بحرية الاختيار والوقت اللازم لتطور مفاهيمه الروحية، بل إنه حصل في وقت حرج من علاقات العشائر ببعضها - على حماية الجماعة الإسلامية، وكانت امرأة هي التي تحدثت علناً وبقوة دفاعاً عنه، كانت زينب دائماً تلازم المسجد الذي كان مكاناً مفتوحاً للرجال والنساء على السواء، ولم يعترض أحد على ما قالته في المسجد، بين الرجال، في واقع الأمر، لم يكن من غير المألوف على الإطلاق أن تتحدث المرأة في العلن بتلك الطريقة، وفي وقت لاحق، في موقف اشتهر في تاريخ المسلمين، خاطبت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان قد أصبح خليفة للمسلمين، وأشارت إلى خطأ في رأي أصدره فاعترف بخطئه على الفور.

كانت النساء تقف في المسجد خلف صفوف الرجال حيث إن أوضاع الصلاة، في مختلف مراحلها، تقتضي وضعاً تتم فيه المحافظة على الحياء والاحتشام والاحترام، وعلاوة على ذلك، فقد وجدوا في موقف النبي ﷺ مثلاً للكماسة والاحترام: كان يطلب من الرجال البقاء في أماكنهم في

المسجد لإفساح المجال للنساء بمغادرته قبلهم دون أي مضايقة، كان تصرفه يتسم باللطف والوقار إزاء النساء اللواتي كان يصغي إليهن واللاتي اعترف بحقهن في التعبير عن أنفسهن وطرح آرائهن وحججهن، وحافظ على هذا الحق وعززته.

